الكونيات والعلوم الحديثة
في شعر الرصافي

بمناسبة الذكرى السابعة على وفاته

للاستاذ خالص عزمي

الرصافي — الذي نحيي ذكراه — ثورة من ثورات الفكر المجدد، وداعية من دعاة النهضة العلمية الحديثة، فضلا عن كونه أميراً من أمراء الشعر، أطلق لفكره العنان في مواضع التفكير الصائب، ذلك التفكير الذي تنطلق منه حينا تأملات الذهن الباحثة عن شتى العلوم والفنون

كان الرصافي — رحمه الله — يبعث بصره (في كثير من الأحيان) جوالا في السماء، في ذلك الكون الشاسع، في ضياء الشمس نهارا، وإلى كواكب السماء، إلى البدر المنير ليلا، فيصور بريشة الإحساس للرهف، وريشة الفنان الملهم، صورا رفيعة المغزى، تقترب من الحقائق شيئا كثيرا، معتمدة، على فكر ثاقب، وتطلع متزن، ثم على إجهاد في البحث، والتتبع المستمر لآراء كبار الكتاب والمفكرين، فيصل بكل ذلك إلى كبد الحقيقة، ولا ينتهي منها شيئا حتى يبدأ بسلسلة من الأفكار الجديدة، شأن كل شاعر حر ومفكر مبدع

يجلس الرصافي ليلته بأفكار مجنحة، ونفس هادئة، وفكر مستقر، يرسل بصره في تلك الصفحة التي تضيئها أنوار النجوم الزواهر، والمجموعات النورية، فتحولها قطعة كبيرة لا تدركها الأبصار، شاعرية التكوين والتشكيل، لا يمكن وصفها على حقيقتها إلا من شاعر ملهم، كالرصافي — فلنا بمجلس ليلته، فلا يكاد يستقر بصره حينا حتى تثور شاعريته فيقول ويستمر في القول حتى ينتهي به المطاف إلى تكوين قصيدة محبوكة الحواشي يحار لتكوينها الفكر، كما حدث في قصيدته الرائعة (تجاه اللانهاية) حيث يقول: —

في فضاء لو سافر البرق فيه ... ألف قرن لما أتى مستقره
ولو الشمس ضوعفت ألف ضعف ... لم تكن في أثيره غير ذره
ولو الفكر خاض فيه مسفذا ... لم يكن بالغا يد الدهر قعره
سمة تحسب المجرة فيها ... حلقة ألقيت بصحراء قفره
إن تكن هذه المجرة نهرا ... مستفيضا فشمسنا منه قطره
إن تسائل عنا فنحن هباء ... ذر من صنعة القوى بمذره

ثم إنك (يا قارئي الكريم) — لو ألقيت نظرة على قصيدته المشهورة — من أين وإلى أين — لرأيته يغند في مواضع كثيرة قول العلماء المشهور ونظريتهم المعروفة التي تتلخص في «أن الضياء حاصل من اهتزاز الأثير فيقول: —

من أين من أين يا ابتدائي ... ثم إلى أين يا انتهائي
أمن فناء إلى وجود ... ومن وجود إلى فناء
أمن وجود له اختفاء ... إلى وجود بلا اختفاء

مخالفا، ثم عرضت عليك خلاف ذلك، أن تكون أسرع إلى موافقتي منك إلى الخلاف علي، حين ترى فيما أقول صوابا يرضيك. أليس هذا جائزا، وممكنا أيضا؟ فإذا رأيتني بلغت في سياق مقالاتي في «المقتطف» إلى ذكر دول الإسلام، فعندئذ فقل، فأنا أقبل منك ما تقول. واعلم أني لا آنف أن أصير إلى الحق إذا عرفته. ولقد عشت على هذه الأرض زمانا طويلا، واعتقدت منذ عقلت آراء كثيرة، ثم تبين لي أن الحق في خلافها، فرجعت عنها جملة، ولم أبال بما كنت أرى. ولعلك أنت خاصة تعلم من ذلك مالا يعلمه غيرك

وأنا أحب أن ترجع إلى ما كتبته في مجلة «المقتطف» ولا تأخذ كلام أهل اللجاجة، فإنهم أوهموك، فيما أظن، أني قلت شيئا، والحقيقة أني لم أقل بعد فيما تناولته أنت شيئا، وأنا أعيذك أن تتورط في هذا الشر الذي نجاهد جميعا في دفع الناس عنه، وهو أخذ الأقوال بلا بينة، وبلا حجة، وبلا برهان. ولك مني تحية كنت أحب أن تبلغك، على غير هذه الراحلة المكرهة على ارتكاب طريق دنسته الأقدام، والسلام

محمود محمد شاكر

لأى أمر ذه الليالى تأتى وتمضى على الولاء
أرى ضياء يروق عينى ولست أدرى كنهه الضياء
وما اهتزاز الأثير إلا علالة نزرة الجـــلاء

وهنا يرى (القارئ) أن الشاعر الكبير قال فى البيت الأخير ما معناه « أن العلماء فسروا ذلك التفسير المبهم لأنهم لا يدركون الحقيقة بل وجدوا ذلك الحل تخلصا فى حلقة مفرغة لا يتصلون إلى نهايتها بتاتا »

ثم يصف تزاحم الذرات فى الجسم وهو ما يسمى (حرك الألكترونات) . فيقول :

فإن أجزاء كل جسم مبتعدات بلا انتهـــاء
وفى دقاق الجماد حرك ينهم الحس بالخطـــاء

وينتقل بعد ذلك فيخاطب تلك القوة الخارقة المعروفة بقوة الجذب فيقول : —

ياقوة الجذب أطلقينى من ثقلة أوجبت عنائى

ثم يتابع القول فيتجه نحو الكهرباء السماوى الذى ينبعث من النجوم والكواكب والأقمار فيقول

وأنت يا كهرباء سر بدا وما زال فى غشاء
عجائب الكون وهى شتى فيك انطوت أيما انطواء
أضأت إن شئت كل داج لمـــا وأدنيت كل ناء

فى هذه القصيدة لاحظ — القارئ الكريم — أن المرحوم الرصافى قال فى أهم النظريات العلمية الحديثة ، فقد قال فى (تزاحم الإلكترونات) وجزئيات الجسم ثم فى قانون الجذب العام ، ونظرية دارون فى النشوء والارتقاء وفى الإشعاع الضوئى ، هذه المواضيع كلها تصور لنا مدى تتبع الشاعر الكبير للنظريات العلمية ، تفنيدها فى مواضع ومجاراتها فى مواضع أخرى

وتتبلور الفكرة التى نتحدث عنها فى وضوح شامل فى قصيدته الا (كن يا ضياء) ومعناها (كن إلى ذلك الشىء يا ضياء ... أو توجه إليه) وبها ينتقد أكبر العلماء وأرقام مدارك فى علوم الفلك والطبيعة : حيث يقول

أيبقى ما وراءك يا درارى فنحن نحاله بعدا شطونا
قد اتسع الفضاء لك اتساعا فهل أبعاده بك ينتهينا
وترصدك الأنام وما أتانا بعلم كيانك المترصدونا
(فهدشل) ما شفا منا غليلا ولا (فاليل) أنبأنا اليقينا
و(كبلر) قد هدى أو كادنا أبانك بانجوم تجاذبينا

ومن كل ما تقدم يتبين للقارئ الكريم أن للرصافى عقلية استوعبت كثيرا من العلوم ، وأدركت من الحقائق والمحسوسات ما جعلها ترتفع شيئا كبيرا من المستوى الفكرى السطحى لأكثر الشعراء

ونحن بهذه الكلمة البسيطة لا يمكننا تبيان ما نريده فى مجال هذا الموضوع المتشعب ، إذ لو أردنا تحقيق ذلك وإدراكه لاحتجنا إلى كثير من الصفحات ، وكثير من الساعات بل الأيام لكى نسجل بها أو نشرح ما قاله شاعرنا الكبير فى هذا الصدد

ولكن لا بأس من أن ننهى حديثنا هذا بما قاله العلامة الكبير (المنفلوطى) فى مقدمته للطبعة الثانية من ديوان (الرصافى) حيث كتب يقول فى هذا الباب — باب الكونيات — مايلى « ... وقصائده (تجاه اللانهاية) و (من أين إلى أين) و (نحن على منطاد) و (الأرض) و (الكن يا ضياء) و (معترك الحياة) وغيرها لو حولت إلى نثر لكانت من خير المقالات التى وصفت بها الكائنات وصفا منطبقا على آخر نظريات العلم الحديث.. ففيها بيان أو شرح لوحدة المادة ، والجاذبية ، والأثير والكهربائية وأشعة (رنجتن) وآراء دارون فى النشوء والارتقاء ، ومذهب ديكارت فى التوصل إلى اليقين عن طريق الشك ، ومبادئ الاشتراكيين فى أن تكون للعامل حصة من إنتاجه »

تركوا السعى والتكسب فى الدنيا وعاشوا على الرعية عاله
يا كأكون اللباب من كد قوم أوزتهم سخينة من نحاله
يتجلى النعيم فيهم فتبكى أعين السعى من نعيم البطاله

ليس هذا فى مذهب الاشتراكية إلا من الأمور المحاله

بغداد خالص عزمى